المقوّمات الحجاجية في أدب البشير الإبراهيمي الإصلاحي

الدكتور: دبيح محمد

جامعة تيارت ـ الجزائر

يتناول هذا المقال أبرز المقوّمات الحجاجية التي امتاز بها محمد البشير الإبراهيمي من خلال أدبه الإصلاحي، كما أنه يستنبط سمات البنيات الخطابية الإصلاحية في مواجهة جمهور المتلقين، بحيث تتوافق كل بنية خطابية مع حال وكفاءة المتلقي، ليختار لها الشيخ ما يناسبها من وسائل حجاجية بغرض التأثير في سلوك وأخلاق السامعين، وقد استفدنا في كل ذلك من العناصر الحجاجية الثلاثة التي أرساها أرسطو في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: الحجاج – المتلقي – الخطاب – التأثير – التواصل - البلاغة

The Argumentative Characteristics in the Reformist Literature of El Bachir el Ibrahimi

Abstract

This article deals with the most important elements of the argumentative foundations which characterized Al-Bashir Al-Ibrahimi through his reformist literature. He also devotes the characteristics of the reformist rhetoric to the audience of the recipients, so that each writing structure corresponds to the condition and efficiency of the recipient. The behavior and morals of those who hear, and we have benefited from all of the three Argumentative Discourse elements Aristotle established in this area.

Keywords: argumentative foundations, reformist literature, discourse,

إنّ آثار الشيخ البشير الإبراهيمي تعبيرا ومضمونا تشكّل تراثا عربيا وجزائريا منفتحا على القراءة في جوانب متعددة، في كل زمان ومكان، وذلك لما يتسم به هذا الإرث من موسوعية وقوة حجاجية قائمة على مقوّمات مستمدة من عوامل متعددة، ولعل أدب الشيخ الإصلاحي ارتكز في إبلاغ رسالاته على الحجج البينة التي تراعي في مجملها حال المتلقين لها. فماهي المقوّمات الحجاجية التي استمد منها هذا الأدب قوته وصلاحيته الممتدة في الزمان والمكان؟

قبل تتبع هذه المقوّمات والكشف عنها يجدر بنا أن نرتد تاريخيا بحثا عن الجذور والامتدادات الأولى لقضية الحجاج، ومع ذلك فإنّ ضيق المساحة البحثية لا يسمح لنا بتقصي كل نظريات الحجاج، ولذلك ارتأينا أن نربط بحثنا بما حدده المعلم الأول في هذا المجال، والذي

تاريخ تسليم البحث: 08أفريل 2015.

تاريخ قبول البحث: 25 سبتمبر 2015.

كان له دور بارز في إذكاء الشعلة الحجاجية بيانا وحدودا. وتفصيلا لما سبق تقوم هذه الدراسة على جانبين، جانب نظري وآخر تطبيقي.

أولا: الجانب النظري: يجمع الباحثون في مجال الدراسات الحجاجية أنّ التواصل الإنساني عامة قائم على الحجاج، لأنّ الحجة صارت من الأسس التي تقوم عليها المجتمعات الحديثة في معظم ميادينها الحيوية، إذ من المخجل اليوم أن نتفاخر بالمحاورة العضلية –كما يسميها البعض- والتي تجرّد الإنسان من المعاني السامية للإنسانية التي تنهض بالعقل والعلم والعدل فتتميز عن سائر الكائنات، وهي التي تجعل منه كائنا خطابيا في مجتمعه، وفي مواجهة غيره، محاورا ومدافعا ومعلّلا ومحاججا. فالحجاج -وفقا لذلك- " هو توجيه خطاب إلى متلق ما لأجل تعديـــل رأيه أو سلوكه أو هما معا وهو لا يقوم إلا بالكلام المتألف من معجم اللغة الطبيعية" [(1)].

فالحجاج يفترض أساسا تحقق العناصر الآتية:

1- المخاطِب والمتلقي.

2- عرض قضية ما في مقدمات وبسط أسبابها.

3- تقديم الحجج الموافقة للموقف الخطابي وللقضية المراد مناقشتها، وقد تكون هذه الحجج ظاهرة أو مضمرة، وقد تتحقّق في أشكال مختلفة(قول، فقرة، نص، سلوك غير لفظي)

4- هدف الحجاج: قد يكون إقناعيا، أو إفحاميا.

5- الخطاب الحجاجي لا يقوم إلا بالكلام المستمد من معجم اللغة الطبيعية.

غير أنّ التعريف السابق يبدو شموليا وعاما، لا يقدّم حدودا نظرية واضحة للحجاج، ولطالما كان هذا التأطير النظري موضع خلاف بين الباحثين منذ بلورته في الفكر اليوناني القديم. وهذا الخلاف يظهر جليا في التساؤلات الآتية:

- أيكون الحجاج علما، أم نظرية، أم وسيلة خطابية؟
- ما علاقة الحجاج بالبلاغة والجدليات وعلوم الاتصال؟
- ما مكانة المنطق في الحجاج؟

المتتبع للدرس الحجاجي يجد هذه القضايا متناثرة هنا وهناك في ثنايا الكتب التي تهتم بهذه المسألة، بل يجد أنّ بعض هذه التساؤلات يشكّل نقطة خلاف بيّنة بين الباحثين، وقد يجد الباحث نفسه يخوض غمار تضارب وتناقض، يفتتح متنه بالتهليل لما يسميه بعلم الحجاج، ثم لا يلبث أن يجعل منه نظرية، ويجتهد في التأسيس لها، ولما يتعلق الأمر بمجانبته

لبعض العلوم المتاخمة له يخلص في آخر المطاف إلى أنّه وسيلة من الوسائل التي يتكئ عليها الخطاب. وهذا الأمر لا يتّضح إلا بعد عرض المسيرة التاريخية لقضية الحجاج.

لا يمكننا في هذه المساحة الضيقة عرض المسيرة التاريخية لنشوء الحجاج وتطوّره ونضوجه، ولذلك نكتفي في بحثنا هذا بفترة النضوج والتي أسهم فيها أرسطو إسهاما كبيرا لازال يمد الدراسات الغربية والعربية بالمهاد النظري الأول وبالأسس التي تشكّل البحوث المعاصرة في هذا الميدان.

نستطيع إذن أن نختبر الأسس النظرية للحجاج التي رسّمها أرسطو على الأدب الإصلاحي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي فنتلمس فيه شعرية الحجاج ومدى فعّاليته في الأطراف المتخاطبة.

1-أرسطو وأساسيات الحجاج: انفصلت بلاغة أرسطو عن سابقيه(السفسطائيين، سقراط) أو بلاغة صنّاع الكلام منذ تيزياس.فقد كان موضوعها عند أفلاطون يقتصر على البحث عن الحقيقة أو الارتكاز إليها. أما عند السفسطائيين فوجب أن تستند كل بلاغة إلى قوة اللغة وأنّ الحقيقة لا وجود لها، وأنّ الإنسان هو مقياس كل شيء[2].

ولإحداث القطيعة مع هذا الميراث قام أرسطو ببناء بلاغته الجديدة على المرتكزات الآتية:

- البلاغة لا تبالي بالأخلاق (تفتقد للحس الأخلاقي)، وفي الوقت نفسه ليست منافية له.
- البلاغة تحيل الشخص إلى ضميره ومسؤولياته أمام المدينة (المواطنة).
- البلاغة أداة تستخدم في الخير والشر والعدل والظلم...
- هي تقنية حجاجية لما هو قابل للصواب وليس للحقيقة[3].

والمتفحص للأسس التي بنى عليها أرسطو بلاغته الجديدة يجد أنّها تراهن على الاستدلال أكثر منها على المشاعر واستثارة العواطف(وهذا ما اهتم به صناع الكلام من قبله)، وهي تشمل كل المواضع التي يمكن أن يستخدم فيها الحجاج.

وعلى إثر ذلك انتقل تعريف البلاغة من "فن الإقناع" إلى "القدرة على الكشف بتفكر عند كل حالة، عما يمكن أن يكون مقنعا فيها"[4]. وتستخدم هذه الكفاءة فعليا في كل المواقف التي تحتاج للإقناع.

1.1-عناصر الخطاب الأرسطي: يتفرع الخطاب عند أرسطو إلى ثلاثة أجزاء أساسية كانت المنطلق الأول للباحثين اللغويين الغربيين، والذين أثروها فيما بعد إلى مخططات تواصلية

وخطابية. وكلها تدور حول المتكلم وموضوع الخطاب والمتلقي الذي خصص له أرسطو جانبا كبيرا من البحث باعتباره منتهى كل خطاب.

و بما أنّه توجد أنواع مختلفة من المتلقين، فإنّه ستكون هناك ضروب خطابية مختلفة، وهي ثلاثة:

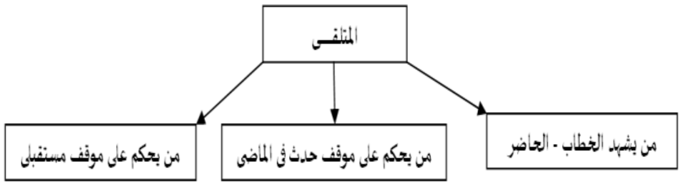

من يشهد الخطاب: يستمع لخطاب يسمى خطابا استدلاليا، ويتضمن قيم الجمال والفضيـــــلة والقبح...و يتم إجراء الحجاج فيه عن طريق التعظيم من خطيب سفسطائي في خطبة مدح أو ذم أو رثاء.

1- من يحكم على موقف في الماضي: له ضرب قضائي، ويتناول قيم العدل والظلم، ويتم إجراء الحجاج فيه عن طريق القياس المضمر من خطيب متهم أو مشتك، ويكون موضوعه البراءة أو الإدانة، في شكل مرافعة.

2- من يحكم على موقف مستقبلي (من له رؤية مستقبلية): وهو العضو في مجمع الجورا، وله ضرب استشاري في اختيار سياسة مستقبلية، ويتناول قيم السعادة الإفادة، الضرر، ويصدر عن المواطن العضو في الجورا، ويتلّق موضوعه عادة بالميزانية والأمن والاقتصاد والتشريع(5).

2.1-المقوّمات الحجاجية عند أرسطو: تتضمن العناصر الآتية:

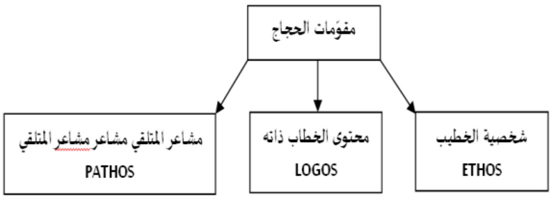

ولب الخطاب الحجاجي مركب من استدلال يقدمه أرسطو فيما يشبه البرهان، ويمكن

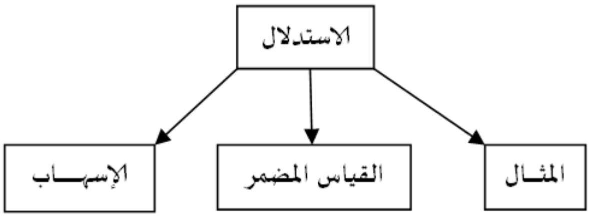

توضيحه في المخطط الآتي:

– المثال: يعتمد على حالة أو أكثر شبيهة بتلك التي نود الإقناع بها.

– القياس المضمر: يكون بالانطلاق من مقدمة ما، بهدف استنتاج فكرة جديدة ومختلفة، لكنها ناتجة بالضرورة من تلك المقدمة، "و من الأمثلة على هذا القياس المضمر هذا الشعار الذي رفعه الفرنسيون خلال الحرب العالمية الثانية في كفاحهم ضد النازية: " الأقوياء ينتصرون(المقدمة الكبرى).نحن أقوياء (المقدمة الصغرى)، إذًا نحن منتصرون(النتيجة)، وهذا مجرد احتمال لأنّ الأقوياء لا يحالفهم النصر دائما. ومثال الفيتنام شاهد على ذلك "(6).

– الإسهاب: وهو تبيان السمو وعلو الشأن، مادته أحداث متفق عليها من الجميع، ولا يبقى إلا أن يضفى عليها الاهتمام والجمال.

فالأمثال تتوافق مع النوع الاستشاري، من خلال الماضي يمكن التنبؤ والحكم على المستقبل، والقياس المضمر أكثر ملاءمة للضرب القضائي، لأنّه يتعلق بحدث لم يسلط عليه الضوء، ويتطلب نتيجة لذلك البحث عن السبب والبرهان(7).

وهذا التقسيم والتنويع في طرق الاستدلال كان له أثر كبير فيما بعد في انبعاث الحجاج بعد انحطاطه وانطلاقا منه جدّد البلاغيون الغربيون البلاغة بعد فترة جمودها، مما جعل منها لغة شارحة، موضوعها الخطاب. ويختصر لنا بارت ماهية البلاغة القديمة في العناصر الآتية:

البلاغة القديمة:

- **تقنية**: مجموعة من القواعد، أو الوصفات التي يسمح تطبيقها بإقناع المتلقي.

- **حقل**: في مرحلة أولى كانت موضوع تعليم، ومن المواد الأساسية في التدريس حتى اختفت من المناهج الدراسية في القرن 19.

- **علم أولي**: يعيّن ويوسّع ويصنّف تأثيرات اللغة.

-**أخلاق**: كمجموعة القواعد المعيارية اللغوية، وفي ذات الوقت وصفة من التعليمات الأخلاقية.

- **ممارسة اجتماعية**: تسمح بالتأكد من ملاءمة الكلام(8).

2-الدرس الحجاجي عند العرب: حاول الباحث العربي حمادي صمود وصف البحث الحجاجي عند العرب من خلال مقارنته بنظيره في الغرب وتوصل في آخر المطاف إلى أنّ النظريات الغربية التي بلغت شأوا كبيرا في هذا المجال ترتد في جذورها التأسيسية إلى ما كان قد أرساه المعلم الأول في دراسته للقول الخطابي، التي كانت تحتكم في مجملها إلى سلطة " أرغانون"(9) وخطابته، وشعره، وهذا مما لم يتسن للعرب من قبل، إلا بعض المحاولات المتفرقة، والتي لم ترق إلى مستوى البحث والتنظير، خاصة في القرنين الثاني والثالث الهجريين،

وقد شهدت هذه الفترة الوجيزة بروز بعض المؤلفات التي ساهمت في رسم المعالم الكبرى للدرس اللغوي العربي.

وبذلك يكون البحث في مجال الحجاج قد رأى النور مع الجاحظ في مؤلفه المشهور "البيان والتبيين"[10].

أما محمد الولي فقد كان أكثر تأخرا من سابقه، فهو يؤكد: "إنّه لمن الإنصاف القول: إنّ حازما هو أول بلاغي ينوّه بالقيمة الحجاجية للشعر، حينما قال: "إنّ التخييل هو قوام المعاني الشعرية، والإقناع هو قوام المعاني الخطابية، واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ" [11]، وإن كان قد جاء بهذا القول ليدلل على أنّ الحجاج لا يختص فقط بما هو نثر فقط، وإنما الإقناع في الشعر مستساغ، ويجوز للشاعر أن يستعمل القليل من الخطابات الإقناعية في غير ما حجب للخيال الشعري، كما يجوز للخطيب أن يستعين بالتصوير الفني، ولكن ليس على حساب الرسالة الإقناعية.

غير أنّ هذه الفكرة لم تتبلور بشكل نظري له أنساقه ومصطلحاته، وإنما كانت جزءا ينتمي لدرس كلي كانت له ظروفه ودواعيه، مثلما كان للحجاج اليوناني ظروف ساعدت على التأسيس له كدرس قائم بذاته، ولذلك نلمس اختلافا كبيرا بين البلاغة العربية والبلاغة الأرسطية، من حيث النشأة والدواعي والسيرورة التاريخية.

البلاغة الأرسطية نشأت نشأة فلسفية منطقية، بتصنيف الأقاويل بحسب قدرتها على قول الحقيقة، وإنتاج المعنى الذي لا يمكن أن يقوم ما يناقضه، والقضايا التي تترتب فيها النتائج عن المقدمات. وهذا القول البلاغي جاء بعد البرهاني والجدلي، وجاء بعده الشعري، فاستأثر البرهاني بدائرة الحق ودار الجدل والبلاغة والشعر حول الممكن والمحتمل، وإن كان الجدل أقربها إلى دائرة الحق والشعر أبعد عن ذلك، وتوسّطت بينهما البلاغة ونتيجة لذلك تعددت الآراء واختلفت وكان على كل طرف أن يأتي بالحجة الأكثر إقناعا وتأثيرا في نفس السامع، كما أنّ الظروف الاجتماعية والسياسية هي التي وجّهت أرسطو هذه الوجهة، ودعته إلى صياغة نظريته البلاغية، وهي ظروف يحددها البعض في ظهور الديموقراطية والحرية والتصدي للجور والدفاع عن الحق.

أما البلاغة العربية فتختلف دواعي نشأتها وظروفها المحيطة، فقد ظهرت في أحضان الشعر، والشعر تجمله الموازنات الشعرية والتكرارات، واللعب اللغوي، والشاعر المتفوق هو الذي يحسن تصوير المعاني وإخراجها في ألفاظ عذبة تسر الناظرين والمتذوقين، وقد زاد القرآن الكريم ذلك تفوقا وامتيازا. ولكنّ الباحثين العرب لم يسلكوا في مسألة إعجازه وتقبلهم آيات

التحدي وتأويلها مسلكا نصيا داخليا، بدراسة الحجج النصية المنضوية في آياته، وترتيبها وانسجامها مع الشكل والهيئة، ليقع النص من سامعه موقعا أبلغ وأشد.

فالتأثير لم يكن مقتصرا على الخصائص الصوتية والمعجمية والتركيبية فحسب، وإنما يتضافر مع البنيات الحجاجية، وقدرتها الفائقة على الإقناع، ومع ذلك اقتصر التفكير اللغوي على الجوانب الشكلية والهيئة الخارجية فقط.

يتساءل حمودي صمود بحيرة عن الشمولية الجانبية التي وسمت النص المؤسس للبلاغة التي دعا إليها الجاحظ على الرغم مما عرف عن هذا الرجل من محاجة ومناظرة عن تفكير وقدرة وعلم ثاقب، لأنّه كان عارفا بتصاريف الكلام ووجوه الاحتجاج، وهو ما يبدو واضحا في كتابيه "البيان والتبين" و"الحيوان". ففي الأول سجلت الخطبة حضورها الطاغي، بإثبات خصومها من جهة، والتفكير في عناصر الخطاب من جهة أخرى وهو جمع ينم عن فهمه لآليات إنشاء الخطابة وسياقاتها ووظائفها، والقول الخطابي عنده يكون للخصومة والمنازعة والاحتجاج على أرباب النحل ومقارعة الخصوم، ومحاجة الخصوص، ومفاوضة الإخوان، والخطيب مطلوب منه –في جميع الحالات السابقة-الإفصاح عن حجته، والبصر بها، والمعرفة بحال المتلقين، مع أنه كانت هناك مؤلفات في الحجاج ولكن تميل للمجادلة أكثر منها للتأسيس والتنظير(12).

كل ذلك يؤكد أنّ البلاغة العربية منذ نشأتها ولدت منحسرة ضيقة، لا تهتم من الخطاب إلا بمظهره اللغوي وما يصاحبه من تزيين وتحسين، واقتصرت القيمة الأدبية الرئيسة على التصوير والصياغة والنسخ الصحيح، ثم ولدت قيمة جديدة في كنف القرآن تؤكد على الوضوح والبيان الضامن للفهم باعتباره الشرط الأدنى لتقرير حجة الله تعالى في عقول المكلفين، والعمل على بناء آليات قادرة على إدراك ذلك الوضوح، إن اعترضه لبس، مثل آلية التأويل. والحرص على وضوح المعنى يقتضي من اللغة أن تكون في غاية الشفافية، تؤدي إلى المعنى بدون أن نشعر بوجودها(13).

فالبيان والوضوح إقصاء للغموض والاختلاف والتباين في الآراء والمواقف، فتتعطل الحاجة إلى الحجة ويبطل باب الجدل للانسجام الحاصل والإجماع القائم.

ثانيا: الجانب التطبيقي: وفقا لما حدده أرسطو سابقا فإنّ المقوّمات الحجاجية في الأدب الإصلاحي عند البشير الإبراهيمي تقوم على ثلاثة عناصر أساسية:

أ-المقوّم الشخصي (الإيتوس): يتعلّق هذا المقوّم بصورة المتكلّم لدى السامع، أي الجانب الأخلاقي للشخص المتكلم ومدى شهرته به وكذا موقفه من القيم الإنسانية والأخلاقية. وهذا ما يتسم به شيخنا، إذ يجمع الباحثون على القبول العاطفي الذي يحظى به الشيخ

داخليا وخارجيا، شرقا وغربا، عدوا وصديقا، فهو خطيب وطني وقومي وإسلامي وعالمي والدراسة البنيوية لأدبه تؤكّد على أنّ ما يدعو إليه الشيخ من إصلاح وما يبديه من مواقف في القضايا الوطنية والقومية نابع من رجاحة عقله وسداد رأيه وقدرته على تكوين رأي سليم اتجاهها.

وهذا ما حدّده أرسطو من قبل واشترطه في شخصية المحاجج حتى يدفع المتلقين إلى وضع ثقتهم فيه منصاعين لما يدعو إليه، ومع افتقاد الشخصية لهذه الصفات يؤدي بالحجاج في نهاية المطاف إلى النتائج الآتية:

- فقدان السداد يؤدي إلى العجز عن تكوين رأي سليم.
- القدرة على تكوين رأي سليم مع اتصافه باللؤم يقوده حتما إلى أنه لا يقول ما يفكر فيه.
- السداد والفضيلة والافتقار للبر يجعله لا يدلي بأفضل النصائح على الرغم من معرفتها.

فالمنهج الإصلاحي إذًا القائم على الحجاج والذي ارتضاه الشيخ في تشكيل المجتمع من جديد والحفاظ على هويته وانتمائه التاريخي العربي والإسلامي يستلزم التسلّح بالصفات والأخلاق السامية كي تبلغ العبارة منه مبلغ التأثير في قلوب المتلقين، فتعدّل من سلوكهم ومواقفهم، سواء تحدث باسمه أو باسم جمعية العلماء المسلمين " نريدها أمة عربية مسلمة، كما هو قسمها في القدر وحظها في التاريخ وحقها في الإرث وحقيقتها في الواقع"[14].

وفي هذا المقام يمكن أن ننقل شهادات الكثير من العلماء في الشيخ البشير الإبراهيمي تؤكّد على زعامته اللسانية والبيانية والأخلاقية:

1- ما أثبته الشيخ في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عن حياته وخاصة فيما يتعلق بمصادر ثقافته وعلومه، ففي سن مبكّرة أتم حفظ القرآن الكريم وألفية ابن مالك، وألفية ابن معطي، وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، كما نهل من عيون الكتب التراثية ككتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني، وكتاب الفصيح لثعلب، وإصلاح المنطق ليعقوب السكّيت، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني[15]، إضافة إلى حضوره مجالس كبار الشيوخ في المدينة المنورة والعراق والأخذ عنهم، مما جعله يتفوّق على الكثير من أقرانه في المشرق العربي، ويستلم كرسي التدريس في بعض مساجدها ومدارسها.

2- شهادة العالم السَّلَفِيُّ، علاّمة الشّام: الشّيخ محمّد بهجت البيطار[16] في رسالته الموجّهة إلى الإبراهيميّ سنة 1949م:

"إلى إمام النّهضة الثّاني، العالم الرّبّاني، الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي أدام المولى فضله، السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ما ذكرتُك مرّة في نفسي أو في ملإٍ من قومي، إلاّ

وذكرتُ معك الدِّين الخالص، والعلم النّافع، والعمل الصّالح، والأدب الجمّ..." ثمّ يَضيف قائلا: : "وكنّا نَشعر أنّنا أمام دائرةِ معارف حَوَتْ من كلِّ شيءٍ أحلاه وأغلاه"، "حَسْبُ الجزائر مجدًا وفخارًا أن يكون منهم الإمام الأوّل للنّهضة الإصلاحيّة الجزائريّة الشّيخ عبد الحميد بن باديس تغمّده المولى برضوانه، والإمام الثّاني لهذه النّهضة المباركة الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي الّذي يحقّ للشّام أن تُفاخِرَ به كما تُفاخر بأبنائها المخلِصين..." [17].

ترسم لنا إذًا هذه الشهادة ملامح الشيخ الإنسانية والأخلاقية:

- **الدين الخالص**
- **العلم النافع**
- **العمل الصالح**
- **الأدب الجمّ**
- **دائرة معارف**

وهذا ما أهّل الشيخ أن يتربع على عرش البيان والإصلاح ويذكّي شعلته الحجاجية في مواجهة الآخر وامتلاك جوانح قلبه.

3- شهادة العلامة محمّد تقيّ الدّين الهلاليّ المغربي[18]: ألقى خطابًا في أحَدِ الاِجتماعات الّتي أُقيمت على شرف الإبراهيميّ في بغداد، وصفه فيه بأنّه: "مثالُ النُّبْل والعلم والبلاغة"[19]

و الشمائل الواردة في هذه الشهادة تجمل ما وصف به محمد بهجت البيطار الشيخ، وهو ما يشترط في كل خطيب محاجج: الأخلاق والعلم والبلاغة.

4- شهادة معاصريه في العراق: " ونحن في العراق هزّ عواطفنا وألهب أحاسيسنا في محاضراته وأحاديثه، لم نشهد أديبا أو داعية بمقدرته وطول نفسه وإجادته لفن القول "[20]

وهذه الشهادة تقرّ بتأثير الشيخ في نفوس سامعيه وإلهاب عواطفهم بأدبه وبيانه، وحسن قوله.

5- تحية الشاعر محمد العيد آل خليفة للشيخ في قصيدته المشهورة[21]:

قُلْ "للبَشيرِ" رَفَعْتَ هَامَةَ أمَّـــةٍ — ذُلَّتْ وَشعْبٍ كَانَ قَبْلَكَ خَامِلا
مَازِلتَ تَكشِفُ عَنْ خَفِي نُبُوغِهِ — حَتَى تَبَيّنَ للنّوَاظِرِ مَاثِـــــلَا
أَخْجَلتَ أَقْطَابَ البَيَانِ فَمَنْ يَكُنْ — سَحْبَان أو قَسما يُلاقِكَ بَاقِلَا

وكان من نتائج هذا التميّز الأدبي والبلاغي افتكاك عضوية في المجمع العلمي العراقي، وحصوله على عضوية المراسلة في المجمع العلمي بالقاهرة من سنة 1954 إلى سنة 1961، حيث ضم لعضويته العاملة[22]، كما عرضت عليه مناصب عديدة في مصر، ومنها مشيخة جامع الأزهر وقد رفض ذلك لأنّه يتعارض مع أهدافه الثورية والإصلاحية[23].

ب- البنية الخطابية لأدبه الإصلاحي (اللوغوس): تقوم البنية الخطابية عند أرسطو على ثلاثة أسس: القياس المضمر، المقارنة أو الشاهد، التفخيم.

فالخطيب –وفق أرسطو- يبرهن على إثبات ما بالشاهد أو بالمضمر أو التفخيم.

غير أنّ هذا المقام البحثي الضيق لا يسعنا أن نستوفي فيه جميع الحالات التي استخدم فيها الشيخ القياس المضمر، وإنما يكفي أن نشير إلى أنّ الجانب الإصلاحي من أدبه قد اعتمد في مجمله على الأساس القياسي ليتدرج بالمتلقي إلى فهم القضية التي يود طرحها وتنبيهه إليها، ومن ثم التأثير في سلوكه ومواقفه.

ينطلق القياس في مجمل القضايا المعروضة من مقدمة كبري تليها مقدمة صغرى ترتبط بالأولى فينتج عنهما مجموعة المحصلات المحتملة أو المقبولة أو المسلّم بها عند العامة، هذا ويسبق المقدمة الكبرى مقدمة افتتاحية يتزاوج فيها طرح القضية بالمقام الخطابي العام، حيث تطل هذه المقدمة على المتن الخطابي لتثير اهتمام السامعين وتهيئهم لتلقي مضمون الخطاب والاندماج فيه.

تتصدر غالبية خطب الشيخ الإصلاحية بالبسملة والحمد والثناء على الله عز وجل، وفي ذلك تأكيد على عروبة الشعب الجزائري وانتمائه الديني والحضاري للعالم الإسلامي، وهي حجة ما فتئت تدحض مزاعم الإدارة الفرنسية التي حاولت آنذاك إضفاء الصبغة الفرنسية على الجزائر لغة ودينا وثقافة، إذ مازال بعض إخواننا العرب في مصر وغيرها من البلاد العربية يعتقدون أننا نتكلم الفرنسية ونعيش حياة فرنسية.

لقد كانت المقدمة البسملية لازمة خطابية يفتتح بها الشيخ دعواه الإصلاحية، تؤكّد على أنّ المعين الحجاجي الأول الذي يغرف منه الشيخ هو القرآن والسنة النبوية ولغة العرب، وهي في اعتقاد الشيخ عوامل إصلاح ووحدة وارتفاع وهدى.

ثم يشرف النداء على عتبات مواجهاته الخطابية فيضفي عليها هدوءا ورزانة ليتسلل إلى قلوب وعقول السامعين طوعا ولينا، ولا فرق في كون هذا النداء يتصدر الخطبة السياسية أو الأدبية أو الإصلاحية. وهو ما يبرز لنا في كثير من خطبه، منها المقطع الآتي:

" حضرات أصحاب المعالي والوزراء

حضرات أصحاب العزة والسلامة

حضرات الزملاء حضرات الأقلام

حضرات الإخوان

هذه الليلة ارتفعت فيها الكلف، وغاب عنها العواذل، وغفل عنها الرقباء، فاسمحوا لي أن أخرج عن الوضع المتعارف في رسوم الخطاب، فأنا بصفتي رجلا مسلما دينيا أمثل الإسلام

في بساطته وسماحته واعتباراته الروحية يحلو لي أن أخاطبكم بما جاء به الإسلام في آدابه الراقية ومثله العليا "[24]

ففي مقدمته هذه ينتقل الشيخ من التخصيص إلى التعميم على عادة الخطباء السياسيين ومراعاة لبروتوكولات المقام السياسي، حيث يجمع هؤلاء المتلقين في الأخير عامل الأخوة المدعم بالرابطة الإيمانية وهو ما يجعل الخطاب في بنيته مشدودا بنواة دينية في مواجهة الرقباء الذين يفرضون حصارا على الكلمة ويسعون لضرب الإسلام ووحدة المسلمين، وتفرز هذه النواة طرفي المواجهة، إذ يتأسس الشيخ وإخوانه في الطرف الأول، ويتأسس الرقباء وهم أعداء الأمة في الطرف الثاني، ويقع على عاتق الشيخ إظهار ما لديه من حجج لإثبات دعواه ودحض افتراءات الآخر، لتحقيق عامل التجميع والوحدة والالتفاف من جهة، ورفض المسخ والإدماج من جهة أخرى.

على هذا النسق المتواتر يصدر الخطاب الإصلاحي مهما كانت طبيعته وغايته، حيث نتلمس فيه في كل مرة تأكيدا على عروبة الجزائر وإسلامها.

كما أنّ الضرب الثاني من اللوغوس وهو التمثيل أو الشاهد نجده حاضرا أيضا في خطابات الشيخ، وفيه ينطلق من فكرة خاصة لتبرير فكرة متعلّقة بها، أي عندما تعرض أمامه قضيتان من الجنس نفسه، وتكون إحداهما أشهر من الأخرى، يلجأ إلى الشاهد أو المقارنة، وهو ما يعتمد عليه الشيخ في خطبه الاجتماعية ذات البعد الإصلاحي، كمعالجته مثلا قضية استفحال الطلاق في المجتمع الجزائري وتهديده تماسك المجتمع يقارنها الشيخ بقضية الزواج ليظهر التناقض بينهما ووجه الاختلاف يظهر خطورة القضية الأولى، فهو في ذلك يقول " الطلاق حل عقدة وبت حبال وتمزيق شمل وزيال خليط وانفضاض سامر"[25] ليقابله في الفقرة الثانية بالزواج " والزواج عقد بين قلبين ووصل بين نفسين ومزج بين روحين- وفي الأخير- تقريب بين جسمين"[26]

يستعمل الشيخ المقارنة في كثير من القضايا التي ترتبط ببعضها وتتصل بخيط واحد، فيعمد إلى المقابلة بينها بطريق الشاهد أو التشبيه أو المقارنة.

ومن جهة حجاجية أخرى يستحضر الشيخ الشاهد التاريخي في بعض خطاباته وخاصة تلك التي تتصل بالتراث العربي القديم، وهذا النوع من الاحتجاج يستمد مشروعيته من وقائع سابقة مماثلة للواقعة المحتج بها بحيث يكون للحادثة المركزية تأثير مستمر عبر التاريخ على كل واقعة تستوفي شروطها من خلال العناصر الآتية:

- الواقعة التاريخية السابقة.

- الواقعة الحالية.
- نتيجة الثانية هي نفسها نتيجة الأولى.

وفي كل هذه الحالات يستخدم الخطيب المقارنة بين الواقعتين ليثبت نتيجة الواقعة التاريخية للواقعة الحالية وهو ما يؤكّده بارت قائلا: " إنّ الشاهد ينتج إقناعا أعذب وهو محبوب لدى العوام، إنّه قوة مشرقة، تثير اللذة الكامنة في كل تشبيه"(27)، وبذلك يتحوّل الشاهد إلى استعارة تاريخية تذيب المسار التاريخي الذي يصل بينها وبين الواقعة الحاضرة، ومثال هذه الحجج في آثار الشيخ كثير، يمكن أن نختار منها النماذج الآتية:

" عادت لعترها لميس" يستحضر الشيخ هذا المثل العربي الذي يتصل "بامرأة كانت لها عوائد الشر تعتادها وأخلاق سوء تفارقها ثم تقارفها، لغلبة الفساد فيها وصيرورته أصلا في طباعها"(28)ويقيسه على الإدارة الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي، و"عتر هذه الإدارة هو الاستعمار البغيض إلى كل نفس وما يقتضيه من ظلم وعنت للمستضعفين، وما يبنى عليه من انتهاك لحرماتهم، وما ينتهي إليه من وحشية في معاملتهم وقتل لمعنوياتهم، ومسخ لأخلاقهم"(29)، فدرجة السوء التي وصل هذا الاستعمار البغيض قد تساوي أو تتجاوز في قيمتها ما كانت تفعله لميس مع قومها، إذ من طبعها الفساد والسوء، فكذلك الإدارة النفسية طبعها طبع سوء وفساد، لا يمكن أن تتحوّل عنه.

أما العنصر الثالث في خطاب اللوغوس الذي يقوم عليه الحجاج فهو التفخيم، ومرتبط عند أرسطو بالخطابة الاحتفالية قصد التعظيم أو الحط من شأن شخصية ما، وفيها يتوسل الخطيب بالتشبيهات والاستعارات والتوازي وتزيين الألفاظ، وهذا الأساس الحجاجي يشغل مساحة بينة في آثار الشيخ حيث يحتفي بالكثير من الشخصيات المشهورة ويرفع شأنها عند المتلقين، وأغلبهم من الزعماء السياسيين والثوريين والعلماء الربانيين والقادة البارزين، هذا من جهة ومن جهة أخرى يحط الشيخ من قيمة فرنسا وحلفائها بسبب أفعالهم الدنيئة والخبيثة، ويستعمل في ذلك كل العبارات التي تنفّر من الاستعمار وتثبت عدالة القضية الجزائرية.

ومن الشخصيات التي يحتفي بها الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس وكل أعضاء جمعية العلماء المسلمين وكذا علماء وزعماء المغرب والمشرق العربي، أمثال محمد بهجت البيطار وسيد قطب والمودودي وغيرهم من الشخصيات المشهورة.

ج- حجج المتلقين، الميول والنوازع (الباتوس): الباتوس عند أرسطو هو كل " ما ينزع إليه هذا الإنسان أو ذاك نزوعا طبيعيا، أي على سبيل الاستعداد الطبيعي، إنّه ذلك الشيء

الذي يميل إليه ويتوخاه"[30]، لأنّ الغاية في نهاية الحجاج والخطابة هي التأثير في المتلقي، ولذلك لا بد من العناية بالمتلقي وأبعاده السيكولوجية والثقافية والإيديولوجية، ومعرفة ما يميل إليه الناس من الصفات الطبيعية والعاطفية، والتحكم في انفعالاته يجعل الخطيب يقود هذا المتلقي في الاتجاه الذي يريده، وفي ذلك يؤكد ميشيل مايير "إنّ القدرة على الحجاج الجيد، أي القدرة على الإقناع تقتضي المعرفة بما يمكن أن يحرّك الذات التي نتوجّه إليها بالخطاب، بمعرفة ما يحرّكها"[31]جمهور المتلقين عند الشيخ نوعان، نوع يتصل بالداخل وآخر يتصل بالخارج، ونقصد بالداخل كل ما له صلة بالوطن من الداخل، وهم في ذلك أيضا أنواع:

-الاستعمار الفرنسي بالدرجة الأولى، حيث نعته الشيخ بأبشع الصفات وكشف مخططاته وأساليبه، وقد كان لذلك وقع شديد عليه، إذ نفاه إلى أفلو بتاريخ 8 أفريل سنة 1940، وبعد الإفراج عنه سنة 1943 زج به في السجن ثانية في 8ماي 1945..

-عامة الشعب الجزائري، حيث تفشى في أوساطه الجهل والفقر والرضوخ والذل، أنهكه الاستعمار من جهة، والبدع والضلالات من جهة أخرى، فتولى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مع إخوانه في جمعية العلماء المسلمين إصلاح هذا الشعب وتعليمه وتربيته، لأنّ ذلك كان في رأيهم خطة سديدة في تثبيت الأركان وإعداد الأجيال ليضطلع هو نفسه فيما بعد بالثورة على أوضاعه المزرية واسترجاع ما أخذ منه.

أما جمهور المتلقين في الخارج فنقصد بهم زعماء وملوك العالم العربي الإسلامي، حيث كشف في معظم خطبه الموجّهة إليهم ألاعيب وخطط العالم الغربي الذي رماهم بالوهن وضعضع كيانهم، وأفشى فيهم كل أسباب الفرقة والتشرذم، فيدعوهم بذلك إلى الوحدة والنصرة والأخذ بأسباب التقدّم.

مراجع البحث وإحالاته:

1- محمد الولي: مدخل إلى الحجاج، عالم الفكر، العدد 2، المجلد 10، أكتوبر- ديسمبر 2011، ص 11.

2- ينظر فيليب بروتون وجيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، تر محمد صالح ناجي الغامدي، مركز النشر العالمي، ص28

3- ينظر المرجع نفسه ص29

4- المرجع نفسه: ص 29

5- المرجع نفسه: ص31

6- محمد الولي: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، عالم الفكر، العدد 2، المجلد 10- أكتوبر – ديسمبر2011، ص: 30

7- ينظرالمرجع السابق ص 34.

8 -Voir: Roland barthes ،« L'ancienne rhétorique ،in communication ،N16 ،1970 ،P64

9- أرغانون: مجموعة بحوث أرسطو المنطقية

10- حمادي صمود: مقدمة في الخلفية النظرية لمصطلح الحجاج، فريق البحث في البلاغة والحجاج، جامعة المنوبة تونس، ص: 11-12

11- محمد الولي: مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، ص19

12- ينظر المرجع السابق: ص 20

13- المرجع نفسه: ص 31

14- جريدة البصائر س2، ع2، س1، 1366هـ-1947م، ص1

15- محمد البشير الإبراهيمي: أنا، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ج21، 1966، ص 135، 139

16- محمد بهجة البيطار (1894-1976) من أعضاء المجمع العلمي ومدرّس التفسير في كلية الآداب في سوريا

17- محمد بهجة البيطار: " قيمة البصائر" في الشرق العربي:، البصائر، ، العدد 91، س2، ص 2

18- محمد تقي الدين الهلالي المغربي: محدّث ولغوي وأديب وشاعر ورحالة مغربي (1892- 1987)

19- جريدة البصائر: العدد 195، س2، ص 1

20- جمال الدين الألوسي: الجزائر بلد المليون شهيد، ، مطبعة الجمهورية، بغداد، د.ط، 1970، ص 153

21- محمد العيد آل خليفة: : الديوان، دار الهدى، الجزائر 2010، ص 373-374

22- ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1962، ص111، 114

23- ينظر: تركي رابح: البشير الإبراهيمي في المشرق العربي، ، مجلة الأصالة، الجزائر، ع2، س2، 1972، ص264

24- البشير الابراهيمي: آثار الشيخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ج3، 1981، ص379

25- المرجع نفسه: ص 279

26- المرجع نفسه: ص 279

27 -Roland Barthese ;L'ancienne réthorique in ،12 communications ،P200

28- محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج3، ص 341

29- المرجع نفسه: ص 349

30 -Michel Meyer: Introduction ،Aristote ،rhétorique ،P33

31 -Ibid: P 32